— ١ —

علم الغيب

معنى الغيب :

الغيب هو الأمر الخفى الذى لايدركه الحس ، ولا تقتضيه بداهة العقل[١] ، ويقع العلم به دون مقدمات أو أسباب تفضى إليه ، ومن غير استدلال منطقى ينتهى إلى معرفته ، ودون أن يثبت عنه خبر صادق[٢] أما مايدرك بالدليل والقياس والنظر، فإنه مجرد ظن ، والظن غير العلم[٣] . وعلى هذا يكون العلم بالغيب إدراك جزئى أو كلى مغيب عنا ، دون التوسل إلى ذلك بصناعة أو نحوها مما يستند إليه الزجر والتطير وما إليه[٤] .

---

(١) التهانوى ، كشاف اصطلاحات الفنون ج ٢ ص ١٠٩٠ وقد رأى الأستاذ محمد فريد وجدى أن الغيب يقابل الواقع (مجلة الأزهر فى الجزء الخامس من المجلد الثامن) ولكن هذا التعريف أحنق فضيلة الأستاذ مصطفى صبرى (شيخ الإسلام فى الدولة العثمانية سابقا) فندد به فى كتابه (القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لايؤمنون) وقرر (ص ١٤٩) بأن الغيب ما غاب عن الحاسة ، والذى يبدو لنا أن التعريفين ليس بينهما تناقض ، وإن كان كلاهما غير واف بالحاجة .

(٢) اخوان الصفا ، ج ١ ص ١٠٥ ــ ١٠٦ طبعة المطبعة العربية عام ١٩٢٨ م ، وابن خلدون فى المقدمة ص ١٠٤ طبعة المطبعة البهية بمصر .

(٣) التهانوى ، فى الكشاف ج ١ ص ٥٢

(٤) ابن حزم ، الفصل فى الملل والنحل ج ٥ ص ٣٩ الطبعة الأولى بمطبعة التمدن ١٣٢١ هـ

علم الغيب لا يجيء اكتسابا :

ومن أجل هذا ذهب جمهرة مفكرى الإسلام إلى أن الله وحده علام الغيوب ، فليس يعرف الغيب أحد من البشر « لا منجم ولا كاهن ولا نبى من الأنبياء ولا ملك من الملائكة إلا الله عز وجل » وذلك لأن معارف المرء لاتتجاوز ثلاثة ميادين : أولها ما اتصل بالماضى ، وثانيها ما انصب على الحاضر ، وثالثها ما امتد إلى المستقبل . ويدرك المرء هذه الآفاق بثلاث طرق : أولاها السماع والإخبار ، وثانيها الإحساس بما هو حاضر موجود ، وثالثها الاستدلال على ماهو كائن فى المستقبل — وهذه الطريق تشمل النجوم والزجر والفأل والكهانة والعيافة ، وتتضمن تأويل الأحلام والنظر فى الكف وضرب الحصى والعرافة ونحوها مما يحتاج إلى تعلم ونظر واعتبار ، وليس هذا كله من الغيب فى شىء ، فإنما يقع الغيب بالخواطر والوحى والإلهام وهذا لايجيء صناعة ولا اكتسابا[1] وتوجه المرء بقلبه إلى الله ليكشف له الغيب ، من صفات أرباب الأحوال ، الذين لم يبلغوا مبلغ الرجال ، ومن أجل هذا قلّ الكشف عند أكابر الصحابة وكمّل السلف الصالح ، ناهيك بمن يلتمسون الغيب بالتوجه إلى غير الله ...[2]

---

(١) اخوان الصفا ، ج ١ ص ١٠٦

(٢) كأن يتوجهوا إلى الكواكب كما يفعل أهل النجامة فيما يقول البعض (قارن جواهر الكلام للأيجى — ص ٢٠٥ من الجزء الثانى من المجلد الثانى لمجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد (ديسمبر ١٩٣٤ نشرة الدكتور أبى العلا عفيفى أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول) .

obeikandl.com

العلم بالغيب عند صفوة البشر :

الله وحده علام الغيوب ، ولكن استئثاره تعالى بالغيب ، ليس معناه فى نظر الكثيرين من مفكرى الإسلام ، سلب القدرة على معرفة الغيب عن كافة البشر ، فإن معرفة الغيب هبة لمن شاء أن يجتبيه الله من عباده ، أو فطرة يؤتيها صفوة المؤمنين وخاصة الناس ، ممن فطروا على الرجوع عن عالم الحس إلى عالم الروح . وآية هذه الفطرة أن أهلها إذا توجهوا إلى تعرف الكائنات المغيبة عنهم ، اعتراهم خروج عن حالتهم الطبيعية كالتثاؤب والتمطط ومبادىء الغياب عن الحس ، ويتفاوت هذا بتفاوت هذه الفطرة عند أهلها ، ومن لم تتهيأ له هذه الآية فليس من إدراك الغيب فى شىء ، وإنما هو ساع فى تنفيق كذبه[1] وشبيه بهذا ما يقع لأصحاب الوحى من الأنبياء ، إذ تدركهم غيبة عن الحاضرين معهم ، يصحبها غطيط كأنها غشى أو إغماء فى رأى العين ، وليست منهما فى شىء ، ولكنها فى حقيقة الأمر استغراق فى لقاء الملك الروحانى ، بما تهيأ لهم من إدراك خارج عن نطاق البشر إطلاقا ، ومن أجل هذا اتهمهم أهل الشرك بأن لهم رئيا أو تابعا من الجن ، ولو لم يلتبس عليهم ماشهدوه من ظاهر الأحوال ، لعرفوا أن ذلك وحى من الله[2] .

ويقول « لين » E. W. Lane فى معرض حديثه عن أهل الدرك من الأولياء : جرت العادة بأن يقال إن الولى يعرف مايخفى على غيره من البشر ، إذ يهبه الله القدرة على إدراك أسرار من الغيب ، تقتضى ولايته العلمَ بها ، وبذلك يطلع على مالا يكون فى

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ص ٩٨ — ٩٩ ، ١٠٢

(٢) المصدر السالف ص ٨٠

متناول الإدراك الحسي ، وهذا يناقض ـ فيما يقول «لين» ـ تناقضا صريحا مايقرره القرآن الكريم فى عدة مواضع ، من أن حجاب الغيب الذى تقصر الحواس عن إدراكه ، لايرتفع لغير الله ، ولكن المسلمين قلما تساورهم الحيرة فى مناقشة موضوع ، فهم يدللون على أن الآيات القرآنية فى هذا الصدد ، تتضمن الحديث عن العلم بالغيب بمعناه المطلق ، ويرون أن الله يهب أولياءه هـذا العلم متى أراد ذلك[1] وسنعود إلى مناقشة مايراه الأستاذ « لين » تناقضا بين موقف القرآن وموقف جملته من المسلمين .

هـذا ما يقع للأيقاظ من مدركى الغيب ، أما النيام فقد يوحى الله إليهم برؤيا صادقة يطلعهم فيها على غيبه ، فيرون مكنوناته دون أن يخرجوا عن حالتهم الطبيعية فى كثير أو قليل .

ومن هـذا نرى أن الله وإن استأثر بعلم الغيب ، فإنه قد يهب رسله القدرة على إدراك بعض نواحيه ، فيكون إدراكهم من خصائص النبوة ، وهى لا تجىء اكتسابا ، وقد يقوى بعض المخلصين من أتباع هؤلاء الرسل ، على الإشراف على عالمه بانكشاف الحجاب وإدراك شىء من تلك الأنوار ، ودون هؤلاء أفراد ربما كان لهم من سلامة الفطرة أو معالجة النفس بأنواع الرياضة أو طروء مرض يصرف قوى النفس عن الاهتمام بشهوات الجسد أو نحو ذلك ، فيدركون شيئا من عالم الغيب أحيانا[1] .

هذا هو الاتجاه الغالب عند مفكرى الإسلام ، وإن كنا سنعرض فى ختام هـذا

---

(1) E.W. Lane, The Manners and customs of the Modern Egyptains.

(٢) السيد رشيد رضا ، الوحى المحمدى ص ١٦٥ وتفصيله فى جزء التفسير السابع (له) ص ٤٢١ ، ٤٥٦ ـ ٤٦٩ وملحقه فى الجزء التاسع ص ٥١٣

البحث ، إلى بيان شيء من وجوه الخلاف بين المفكرين فى تأييد التكهن الصنعى أو إنكاره ، مقدرين بأن التأييد لا يخلو من التأثر بالاتجاهات الهيلينية القديمة ، وأن الإنكار مرجعه إلى الروح الدينية الإسلامية .

حدود الإدراك الغيبى فى نظر مفكرى الإسلام :

ومردّ القدرة على إدراك الغيب — فى نظر هؤلاء المفكرين — إلى ذهاب الحس وزوال حجابه ، وقد يتهيأ هذا لبعض المجانين والمرضى والقتلى والمتوهين من المريدين، ومن إليهم ممن يتهيأ لهم انصراف المزاج عن موارد الحس ، وتجرد النفس عن علائق البدن ، وانشغالها عن التفكير العقلى ، ومن هنا وقع الغيب لهؤلاء ، ولمن يحاولون أن يموتوا بالمجاهدة موتاً صناعيا، بقتل كافة قواهم البدنية ، ومحو آثارها التى تلوثت بها النفس[1] ، فليس يمنع النفس من تعقل المدارك الغيبية إلا انغماسها فى البدن والحواس وشواغلها ، فإن الحواس بما فطرت عليه من إدراك حسى جسمانى ، تجذب النفس إلى الظاهر دواماً، ولكن النفس إذا انغمست من الظاهر إلى الباطن ، ارتفع حجاب الحس لحظة ، تتطلع فيها النفس إلى الذوات التى فوقها فى الملأ الأعلى ، لما بين أفقها وأفقهم من وجوه الاتصال ، وفى هذه الذوات صور الموجودات لأنها إدراك محض وعقول بالفعل ، فتقتبس النفس منها علما ومعرفة[2] ، ومن أجل هذا جاز وقوع العلم بالغيب ، لمن استطاعوا أن يزيلوا حجاب الحس فى يقظة أو منام ، أليس فى النوم زوال لحجاب الحس[3] . . ؟

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ص ٩٥

(٢) المصدر السالف ، ص ٩٢ — ٩٣ و ٤١٥ — ٤١٦

(٣) وهكذا أخرج جمهرة مفكرى الإسلام من مدركى الغيب ، مدعيه من أهل العرافة والنجامة والعيافة والطيرة والسحر ونحوه .

اتجاهات المفكرين فى تفسير الوحى والإلهام :

والإسلام ـ كغيره من الديانات ـ لا يستقيم دون الاعتقاد فى صحة الوحى والإلهام ، ولهذا كان لا بد لمفكريه من أن يعرضوا لتفسير الوحى تفسيراً عقلياً يدحض مفتريات منكريه ، أو يسدد تيارها على أقل تقدير . وقد اختلفت وجهات نظرهم فى مسالكها وتفاصيلها ، ولكنها اتفقت فى أصولها والتقت عند تأييده ، وحسبنا الآن أن نشير موجزين إلى هذه الاتجاهات :

١ ـ اتجاه الفلسفى فى تفسيره :

فأما الفلاسفة فقد ذهب جمهورهم فى تأويله إلى ترقّى العقل البشرى فى مراتب الإدراك ، حتى إذا بلغ مرتبة الفيض والإلهام ، وأضحى ـ عقلا مستفاداً ـ اتصل بالعقل الفعال الذى يربط بين العالم العلوى والعالم السفلى ، وعند وقوع هذا الاتصال يتقبل المرء فيض الأنوار الإلهية ، وتنكشف له مكنونات الغيب المحجب ، وقد يقع هذا الاتصال بالتأمل العقلى للحكماء ، وبالمخيلة القوية مع هذا التأمل للأنبياء والواصلين من الأولياء . فالوحى عند فلاسفة الإسلام اتصال النفوس الناطقة بعقول الأفلاك ونفوسها اتصالا معنويا يمكنها من الاطلاع على ما يتضمنه من صور الحوادث التى ترتسم فى النفس البشرية ، كما يحدث إذا حاذت مرآةٌ مرآةً أخرى فيها نقوش تنعكس إلى الأولى كما يقول ابن سينا فى إشاراته .

ارتباه الصوفى فى تصوره :

وقد تشعبت وجهات الصوفية فى نظرهم إلى ذلك ، فمنهم من تحول عنده الاتصال الفلسفى إلى اتحاد ترتبط فيه النفس البشرية بالروح المقدسة ـ أى العقل الفعال فى لغة الفلاسفة ـ بعد تجردها من علائق الحس وشهوات الجسم ونحوها مما أبان عنه السهروردى وأتباعه من الإشراقيين من الصوفية ، ومنهم من رفض الاتصال الفلسفى والاتحاد الصوفى السالف ـ كالغزالى ـ وقال بأن الإلهام الذى يفيض عنه العلم اللدنى، يصدر عن الله دون وسيط ، ومرده إلى فطرة النفس وتهيئها له من غير معلم ، فإن النفس مهيأة بطبيعتها لاستقبال الوحى والإلهام الإلهى متى تجردت من علائق حسها ، بتقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله مع الجوع والسهر ونحوه حتى يرتفع حجاب الحس المرسل بين القلب واللوح، وتطالع النفس جواهر الملكوت وتتكشف لها مكنونات الغيب .

وليس يعنينا اختلاف الصوفية فى التفاصيل ، بقدر ما تعنينا النتيجة التى انتهوا إليها ، وهى نتيجة سلم بها بعض الحنابلة من أهل السنة ، الذين ناصبوا المتطرفين من الصوفية العداء . وهكذا يتفق صوفية الإسلام مع فلاسفته ـ فيما يقول معالى أستاذنا مصطفى باشا عبد الرازق ـ على اعتبار الوحى إشراقاً من النفس الإنسانية على حقائق الكون المثبتة فى عالم فوق عالمنا ، ولكن بين مذهب الصوفية ومذهب الفلاسفة فروقا ، لأن العالم العالى عند الفلاسفة ، عقول مجردة ونفوس هى عقول الأفلاك ونفوسها ، وصور الأشياء منقوشة فيها بحكم أنها مصادر لها وأسباب لوجودها ، وبحكم أنها مجردة بطبعها ودرّاكة ، أما العالم العالى ـ عند الصوفية ـ الذى يفيض منه

الوحى والإلهام ، فهو لوح محفوظ كتب الله فيه الوجه الذى أراده ، ما كان وما يكون ، وملائكته هم أجسام من نور ذوو نفوس كريمة لها اطلاع على ما فى اللوح ، وهى أيضاً ألواح ، خطت فيها صنوف من العالم الإلهى ، وما الوحى إلا أن يتلقى النبى من الملك شرائع إلهية مع شهود الملك وسماع خطابه ، إذ لا يجمع بين شهود الملك وسماع خطابه إلا الأنبياء ، أما الولى فإنه إن سمع صوتاً فهو لا يرى صاحبه ، وإن رأى الملك لا يسمع له كلاماً — كما جاء فى كتاب الكبريت الأحمر .

ومنشأ الخلاف أن الفلاسفة فسروا النصوص الدينية بما يوافق ما استقر عندهم ، من نظام الكون وترتيب العوالم سفليها وعلويها ، فهم يجعلون الملائكة الذين ورد ذكرهم على لسان الشرع ، عبارة عن العقول المجردة والنفوس الفلكية التى أثبتتها فلسفتهم ، ويؤولون النصوص تأويلا يتفق مع أغراضهم . أما الصوفية فإنهم يعتمدون أولا على النصوص الدينية ، ويحاولون مبلغ جهدهم أن يشرحوا مبهمها ويوفقوا بين ظواهر التضارب بينها ، مضطرين إلى الركون إلى منازع الفلسفة ، وإلى ما يسمونه ذوقا تقصر عنه العبارة ويدركه العارفون ، فهم أقل إمعاناً فى التأويل ، وأقل وضوحاً فيما يقول معالى الباشا . وقد كان رأى الفلاسفة يظهر فى عصر النهوض ، كما يظهر رأى المتكلمين فى عهد الركود ، ومذهب المحدثين من أمثال محمد عبده ، إنما هو مذهب الفلاسفة قد طرزت حواشيه مذاهب المتكلمين[1] .

---

(١) معالى مصطفى باشا عبد الرازق ، فى بحث له عن الوحى — لم يطبع بعد ، وسنعود للحديث عن هذا الموضوع عند ما نعرض للكلام على « إمكان الوحى » و « طريقة الكشف عند الصوفية » ... الخ .

منابع هذه الأفكار :

إن الاعتقاد فى عالم الغيب والقدرة على ارتياد مجاهله ، أعرق فى القدم من النظر العقلى عند بنى البشر . لأن الناس لم يهتدوا إليه بمنطق عقولهم ، بل بوحى طبيعتهم وهدْى شعورهم ، وليس يعنينا الآن أن نؤرخ هذا الاعتقاد ، ولكننا سنحاول أن نرد الأفكار التى قيلت فيه إلى المنابع التى صدرت عنها ، وما دمنا بصدد تفكير إسلامى ، فإن من سداد الرأى ألا يتجه بنا البحث عن أصوله خارج الإسلام ، حتى إذا عز الاهتداء إلى جذوره فى نطاق الدين ، اتجهنا إلى البحث عنها فيما اتصل بالمسلمين من تراث القدماء .

موقف القرآن الكريم :

ذاعت أساليب التنبؤ عند عرب الجاهلية ذيوعاً واسع المدى ، فلما نزل القرآن هاجم هذه الأساليب ، وحصر الإدراك الغيبى فى الله وحده ، ليجتث الوثنية من جذورها ، فلا يخشع أو يلجأ لغير الله إنسان[١] ، قال تعالى : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو »[٢] وكرر هـذا المعنى فى أكثر من آية[٣] . ولكن الله يطلع على غيبه من يجتبيه من رسله : « وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء »[٤] ويقول كذلك « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من

---

(١) محمد عبده ، رسالة التوحيد ص ١٥٤ (الطبعة السادسة عام ١٣٥١ هـ)

(٢) سورة الأنعام ، آية ٥٩

(٣) سورة هود آية ٣١ ، النمل آية ٦٥ والأنعام آية ٥٠ وغيرها

(٤) آل عمران آية ١٧٩

ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم »[١] . ومع أن آيات القرآن التى تنصب على العلم بالغيب ، يبدو أنها ترده إلى الله ومن يجتبيه من رسله ، فإن أهل السنة قد انعقد إجماعهم فى تفسير الآيات ، على إمكان اطلاع غير الرسل على الغيب ، اطلاعا لايفيد أكل مراتب العلم ، أو قصر اطلاعهم على بعض ميادين الغيب ، وبذلك فرقوا بين اطلاع الرسول واطلاع غيره من صفوة المؤمنين[٢] .

والقرآن بعد هذا يحارب التنبؤ الذى يقصد إليه أهله ويتعمدونه صناعة واكتسابا، سواء اقتصروا فى هـــذا على التوسل إلى الله[٣] ، أو اعتمدوا فيه على الشواهد الحسية من قداح أو أزلام أو نحوها[٤] .

والله يطلع على غيبه من شاء بطرق شتى : فقد يرسل ملكا يتمثل بشراً سويا[٥] وقد يكلم الله الرسول تكليما[٦] ، وقد يلقى الله المعانى فى نفس الموحى إليه كما وقع لبعض الأنبياء ، وقد يوحى الله بالمعانى فى رؤيا صادقة تكشف عن مجاهل الغيب[٧]

---

(١) الجن ، آية ٢٦ ــ ٢٧

(٢) انظر Flügel فى « غيب ــ الغيب ــ بالغيب ... الخ

ويشهد بصحة هذا ، ماورد فى سورة الكهف عن صاحب موسى الذى أطلعه الله على غيبه بشأن السفينة والغلام والجدار ، مع أنه لم يثبت أنه كان نبيا أو مرسلا ؟ وما ورد فى سورة مريم عن هبوط الروح عليها ، وتمثله لها بشراً سويا ، واطلاعه إياها على ماسيكون من أمرها ، وأمر ولدها ، مع أن مريم ليست نبيا ولا مرسلا .

(٣) الصافات آية ٦ ــ ٩ والطور آية ٣٧ والجن آية ٨ ــ ٩ ، الشعراء آية ٢١٠ ــ ٢١٢

(٤) المائدة آية ٣ ، ٩٠

(٥) مريم آية ١٦ ــ ١٩ ، الذاريات آية ٢٤ ــ ٣٠

(٦) النساء آية ١٦٤ والأعراف ١٤٤

(٧) الصافات آية ١٠٢ ــ ١٠٧ ويوسف آية ٤ ــ ٦

وهكذا نرى أن القرآن الكريم قد تضمن اتجاهات مفكرى الإسلام فى تعريف الغيب وتحديد آفاقه ، حتى لانكاد نجد رأياً خلفوه فى هذا الصدد إلا وقد نصت عليه آياته الكريمة .

ولعل من الطبيعى ألاّ يتضمن القرآن اتجاهات المفكرين فى تفسير الوحى وإمكان وقوعه تفسيرا عقليا ، فما لهذا نزل القرآن الكريم ، وهى من إبداع مفكرى الإسلام ، على الرغم من اتفاقها مع كثير من الأفكار الشائعة عند اليونان والرومان والهنود بهذا الصدد . والراجح أن هذا التوافق دليل على مايمكن أن تصل إليه وحدة العقل البشرى ، وتشابه استجاباته لتشابه المؤثرات ـ وسنعرض فيما يلى بعض نماذج من هذه الأفكار .

موقف اليونان والرومان من العلم بالغيب :

إن التشابه بين آراء اليونان والرومان وآراء مفكرى الإسلام ، لا يشمل الأصول وحدها ، بل قد يمتد حتى يتناول الفروع والتفاصيل : فمن ذلك أن الإدراك الغيبى قد أصاب حظه الوافر من تقدير المسلمين ، لأنه ارتبط بوحى الأنبياء وإلهام الأولياء ، فارتفع بذلك على كل علم سواه ، ولكنهم ـ مع هذا ـ هاجموا من أساليبه ما جاء صناعة واكتسابا ، لأن علم الغيب خاصة يستأثر به الله ويهبه من شاء من عباده ، وكذلك الحال عند اليونان والرومان : اتصل الإدراك الغيبى بالشعائر المقدسة وأضحى جزءاً من الدين ، واعتبر الاستخفاف به استخفافا بالآلهة[1] ، واهتم الذين أبوا التسليم به ، بتوكيد الفصل بينه وبين الدين والآلهة معا[2] . وتدخل أهله فى

---

(١) قارن Cicero : Divination, i. 4,5 طبعة لويب Loeb الإنجليزية و Garnier الفرنسية ـ فى التعليقات ـ

(2) Ibid : i. 5 & 6 ; ii, 72.

شئون البلاد الداخلية والخارجية ، فكان الأثينيون لايعقدون اجتماعا إلا حضره الكهان والراءون ، كما خصص الأسبرطيون عيافا لنصح الملوك ، وحضور الجلسات التى يعقدها مجلس الشيوخ ، وكان الرومان لايقدمون على عمل إبان الحرب أو السلام إلا بعد استشارة أهل العرافة[1] ، وبعض هذا نراه ملحوظا فى قصور الخلفاء والملوك فى الإسلام كما سنعرف بعد .

وقد قسموا أساليب التنبؤ إلى صنعية تجىء صناعة واكتسابا (وتشمل العيافة والنجامة وتأويل الخوارق ... الخ) وطبيعية وتشمل حالات التنبؤ إبان الجذب فى اليقظة ، والرؤيا الصادقة أثناء النوم[2] . وسلم الكثيرون من فلاسفة اليونان والرومان بهذه الأساليب كلها ، فسلم بها سقراط وبعض تلامذته وأفلاطون وأتباعه من أهل الأكاديمية القديمة ، والمشاءون من تلامذة أرسطو ، وفيثاغورس وديمقريطس ، والرواقية الذين أبلوا فى الدفاع عن فنونه أحسن بلاء ، ولم يسلم بعض الفلاسفة بأساليب التكهن الصنعى وإن اعتقدوا فى صحة التنبؤ الطبيعى (كما فعل جمهرة مفكرى الإسلام) وقد كان على هذا ديكيار كوس Dicaearchus وكراتيبوس Cratipus[3] وغيرهما . وكان فلاسفتهم فى الجملة لايعتبرون الاستنباط الذى تؤدى إليه مقدمات وأسباب تبرر نتائجه تنبؤا بالغيب ، فليس كاهنا من تنبأ استناداً إلى قوانين الطبيعة وأحداثها ، من طبيب أو ملاح أو سياسى أو نحوه[4] .

وكما اشتدت حملة الكثيرين من مفكرى الإسلام على مدعى القدرة على التنبؤ من الدجالين والمرتزقة ، فقد كان هذا هو الحال عند الرومان ، هاجمهم معتنقو التنبؤ

(1) Ibid : i. 43.
(2) Ibid : i. 6, 18 & 33 Seq.
(3) Ibid : i, 3 مع تعليقات طبعة «جارنييه» على الفقرة الثالثة ، وقارن الفقرة الخمسين
(4) Ibid : i, 50

الصحيح ومنكروه على السواء[١] . واشتد خطر هؤلاء الدجالين حتى اضطر مجلس الأعيان فى عام ٢١٣ ق . م إلى مصادرة المصنفات التى تضمنت نبوءاتهم الرخيصة[٢]

وقد حصروا الإدراك الغيبى فى الآلهة ، ورأوا أنها تمنحه من تشاء من الكهان والرائين والعرافين أيقاظا، وأصحاب الرؤيا الصادقة نياما ، وقد ميمنت الآلهة حتى على أساليب التنبؤ الصنعى ...[٣]

ورد التنبؤ ـ ولا سيما الطبيعى منه ـ إلى الآلهة لا إلى النظر العقلى ونحوه ، أفضى إلى القول بقدرة بعض المجانين على كشف مجاهله ، وحرمان الحكماء من هذه الهبة[٤] كما ذهب الرواقيون ، ولكن أتباع الأكاديمية الجديدة قد رفضوا هذا الرأى[٥] .

والثابت عند جمهرة المستشرقين الذين عرضوا للبحث فى تاريخ هذه العلوم ، أن هذه العلوم قد عرفت فى الشرق القديم عند الأشوريين والكلدانيين والمصريين ومن إليهم، ثم امتزجت بما عرف عن اليونانيين والرومان من أفكار ، وانتقل التراث الهيلينى الذى جمع بين العناصر الشرقية والأفكار اليونانية ، كما انتقلت (على وجه الخصوص) الأفلاطونية الجديدة والفيثاغورية المحدثة والغنوصية ونحوها مما يساير الروح العربى، إلى مفكرى الإسلام وأثرت فى الكثيرين منهم[٦] .

---

(1) Ibid. i, 58

(2) Tite-Live XXV, I. وانظر « بوشيه لوكليرك » ج ٤ ص ١٢

(3) Ibid, i, 35-37, 51,52 & 54. أما عن التنبؤ الطبيعى فانظر الفقرة الثامنة والثلاثين من الكتاب الأول فى شيشرون

(4) Ibid, i, 38.

(5) Ibid, ii, 54. وقد عارض « شارل آبون » فى تعليقاته على طبعة « جارنييه » الفرنسية ، رأى شيشرون بنظرية مفكرى المسيحية، وهى قريبة الشبه من نظرية المسلمين .

(٦) أبان عن هذا « بوشيه لوكليرك » Bouché - Leclercq و « شيشرون » Cicero والذين اشتركوا فى مادة Divination فى دائرة معارف الدين والأخلاق وغيرهم ممن فصلوا فى بيان هذا الموضوع .

المسلمون بين القرآن وتراث القدماء :

إن معرفة المسلمين بالقرآن أسبق من معرفتهم بفلسفة اليونان والرومان لا محالة، فإذا كان القرآن قد حدد آفاق العلم بالغيب على النحو الذى أسلفناه ، واستوعب آراء المسلمين فى هذا الصدد ، فإن الشىء الذى لا يكاد يرتقى إليه الشك ـ عند من يؤمن بأن القرآن منزل وليس موضوعا ـ هو أن مرد آراء مفكرى الإسلام إلى القرآن لا إلى اليونان والرومان ـ بالغاً ما بلغ التشابه الدقيق بين وجهات النظر الإسلامى واليونانى، ومهما ثبت انتقال الهيلينية إلى العالم الإسلامى إلا إذا قيل إن القرآن نفسه قد تأثر بتراث هؤلاء القدماء وإذا نحن أهملنا النظر إلى أسبقية علمهم بالقرآن ، لما كان التشابه وحده مبرراً للجزم بنقل اللاحق عن السابق ، لأن فى العقل البشرى وحدة كفيلة بالاهتداء إلى النتائج المتشابهة رغم اختلاف الزمان والمكان معا كما سنعرف فى نهاية هذا البحث .

ولكن إذا كان من الإنصاف أن نرد للإسلام اتجاهات مفكريه فى فهم الغيب وتحديد آفاقه، فإن من الإنصاف للتراث العربى أن نرد إليه الكثير من عناصر التفسير العقلى لهذا الإدراك عند المسلمين ، فإن الدين الإسلامى لم ينزل ليفسر مثل هذه الظواهر تفسيراً عقلياً منطقياً ، وما من شك فى أن مفكرى الإسلام قد أخذوا عن الهيلينيين الكثير من وجوه التفكير النظرى ، لأن روحهم تساير الإسلام إجمالا وتتساق مع طبيعة أهله ، لا سيما وأن الكثير من عناصره مرجعه إلى الشرق القديم ، وسنعرض لهذا فيما بعد .

ملاحظات على بعض ما سلف :

حسبنا الآن أن نسجل بضع ملاحظات خاطفة :

١ — استئثار الله بالغيب ومنحه لمن يشاء من عباده ، قد أدى إلى استبعاد الصنعى من أساليبه ، وأفضى هذا إلى احتقار النظر العقلى والمنهج التجريبى فى الوصول إليه ، وانتهى هذا إلى سلب الإدراك الغيبى عن الفلاسفة والعلماء وإضافته للمجانين والمعتوهين والنيام ومن إليهم من فاقدى العقل ، وارتفعت مرتبة هؤلاء حتى اقتربت من مرتبة النبوة ...!!

٢ — تفسير الفلاسفة الوحى باتصال العقل المستفاد بالعقل الفعال ، يقوم على جانب شعرى خيالى ليس من الميسور على العقل العلمى أن يسلم به .

٣ — تفسير الصوفية للإلهام يرده إلى الصناعة والاكتساب ، فإن تجريد النفس من علائق الحس يجىء بالذكر والجوع والسهر ونحوه من طرق كسبية صنعية . وربما قيل إن التجرد الذى قصدوا إليه قد توافر للكثيرين من أمثال غاندى ، فهل وقع لهم شىء من مدارك الغيب .. ؟ على أن من الإنصاف أن نقول إنهم لم يدعوا أن التجرد يؤدى إلى العلم بالغيب فى كل حالة .

٤ — ابن خلدون مفكر عبقرى باعتراف المستشرقين ، ولكنه يبدو فى هذا الفصل مجرد ناقل يحيط فاقدى العقل بهالة من التقديس ، ويناقض نفسه فيقرر حينا بأن الغيب لا يجىء صناعة ولا اكتسابا ، ثم يقرر حينا آخر بأنه يقع لمن يموت بالمجاهدة موتا صناعيا فيقتل بذلك كافة قواه البدنية بالذكر والجوع ... إلى آخره .

٥ — ربما بدا من عرض اتجاهات الفلاسفة وبعض الصوفية فى تعليل الإدراك الغيبى ، أنها لا تتفق مع ظاهر الشرع الذى قرر بأن الله يطلع على غيبه من شاء من عباده ، وهذا

ـ فيما يلوح ـ مما حمل رجال الدين والسنيين من الصوفية على رفض الاتصال الفلسفى والاتحاد الصوفى معا .

٦ — إن بعض المفكرين قد أنكروا الإدراك الغيبى فى مختلف صوره ، ورد ما يبدو من آثاره إلى النفس ، أى أنه ينبع من باطن النفس ولا يفد إليها من خارج ، وربما أيدته فى ذلك بعض الدراسات السيكولوجية الحديثة والقديمة مما[1] . وسنعود إلى هذا بعد قليل[2] .

٧ — إن التنبؤ فى عرف مفكرى الإسلام غير التنبؤ الذى يسلم به العلم ـ وهو استنباط نتيجة من مقدمات تبرر استنباطها .

وبعد ، فهذه نظرة مجملة إلى علم الغيب عند مفكرى الإسلام ، وهو على ما رأينا قسمان : طبيعى وصنعى ، فلنقف بابا خاصا لتفصيل الحديث عن كل منهما :

---

(١) قارن رأى شيمرون أحد زعماء الأكاديمية الجديدة فى الفقرة ٦٧ من الكتاب الثانى فى سفره السالف الذكر .

(٢) فصل « إدراك الغيب عند الأنبياء » .